مَجلّة فصليّة محكّمة

تُعنى بعلوم كتاب نهج البلاغة
وبسيرة الإمام علي عليه السلام وفكره

تَصْدُرُ عَنِ

الأمانة العامّة للعتبة الحسينيّة المقدّسة
مؤسّسة علوم نهج البلاغة

مُجازَةٌ من وِزارَةِ التَّعْليمِ العالي والبَحْثِ العِلْميّ
مُعْتَمَدةٌ لأغراضِ التَّرْقِيَةِ العِلْمِيّة

السنة السادسة- العدد الثاني عشر

شعبان ١٤٤٢هـ- آذار ٢٠٢١م

ثنائية الحق والباطل في خطب نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام) دراسة في إنتاج المعنى

The dichotomy of rightness and falsehood in Nahj al-Balagha sermons by Imam Ali (p b u h), a study in the production of meaning

أ. م. د. جاسم عبد الواحد راهي الحميد

كلية العلوم الإسلامية – جامعة كربلاء

م. م باسم شعلان خضير الصالحي

مديرية تربية النجف الأشرف

Assist. Prof. Dr. Jassim Abdul Wahid Rahi Al-Hamid

College of Islamic Sciences - University of Karbala

Assist. Teacher. Basem Shaalan Khudair Al-Salhi

Directorate of Education in Najaf

ملخص البحث

لنهج البلاغة سمات وخصائص أسلوبية عالية المضامين، توضح خصائص الأسلوب في كلام الإمام علي (عليه السلام)، ومن هذه الخصائص التلون البديعي الذي يقوم على الجمع بين الشيئين في الكلام على حذو واحد، فيكون الكلام مشتملاً على لفظين بينهما علاقة في المعنى، وهذه العلاقة تتوضح في التضاد والتقابل والمشاكلة والمجانسة والاشتراك، فهذا الأسلوب يقوم على مبدأ (الثنائية) هو فنٌ بديع ذو تأثير خالص متميز، يتجلى هذا التأثير في أنه يجمع بين الأضداد وهذا الجمع يخلق صوراً ذهنية ونفسية متعاكسة يوازن فيما بينها عقل القارئ ووجدانه فيتبين ما هو حسن منها ويفصله عن ضده. وتطبيقا لهذا الفن البديعي؛ يقف البحث على ثنائية الحق والباطل في كلام الإمام علي (عليه السلام) ليبين المعاني المتحققة والصور الفنية المنتجة بهذه الطريقة الأسلوبية إذ إن البناء التركيبي الثنائي والأداء الأسلوبي في خطاب نهج اللاغة يكشف بوضوح حضوراً بارزاً لثنائية الحق والباطل المتقابلة بالتضاد بمعنى أن كل واحد منهما يمثل ضداً للآخر، فالقارئ لنهج البلاغة يجد أن الكتاب ينتظم فيه كثير من الثنائيات المتضادة إلا أن إمعان النظر يرينا أنها في مجملها تمثل تقابلاً بين ثنائية الحق والباطل، إذ يتجلى هذا المبدأ في أغلب تلك الثنائيات. لهذا كان اختيار هذه الثنائية كونها أصلاً دلالياً ومعنى عميقا لعدد من الدلالات والمعاني التي سيكشفها البحث.

Abstract

Nahj Al Balagha (The Rhetoric approach), new system of cooperation between the two countries, which is to be used in the context of the development of the two countries. This technique is based on the principle of (binary), a brilliant art with a distinct, pure effect, which is reflected in its combination of opposites and this combination creates opposite mental and psychological images that balance the mind and the heart of the reader, and it shows what is good and separates it from it. In accordance with this intuitive art, the search is based on the double right and the wrong in the words of Imam Ali (peace be upon him). To demonstrate the meanings achieved and the artistic images produced in this stylistic way, as the two-dimensional structure and the stylistic performance in the rhetoric of the approach clearly reveal a prominent presence of the dual right and opposite-wrong, which means each represents an opposite to the other. The reader of the rhetorical approach finds that the book is organized by many opposing duals, but closer attention is seen as a whole, a relationship between the double right and the wrong, as this principle is reflected in most of those duals. This is why choosing this duo as a semantics asset and a profound meaning to a number of implications and meanings that the research will reveal.

المُقَدِّمَة

الحمد لله الذي به نبدأ، وعليه نتوكل، وإليه المعاد، والصلاة والسلام على أهل الصلاة والسلام، محمد وآله الكرام.

أمّا بعد:

قال تعالى: ﴿فأقِمْ وَجْهَكَ للدِّيْنِ حَنِيْفاً فِطْرَةَ الله التي فطَرَ النَّاسَ عليها﴾ [الروم: ٣٠].

نعم، فالإنسان مجبول على حب الخير، وأي خير بعد معرفة الله سبحانه وتعالى ومعرفة دستور الإسلام (القرآن الكريم)، ذلك الكتاب السماوي العظيم، والنور الإلهي الساطع، وكذلك معرفة كلام الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله) ومعرفة كلام الأئمة الأطهار (عليهم السلام) ولا سيما من الأئمة كلام سيد البلغاء الذي جمع في كتاب رائع تحت مسمى (نهج البلاغة) ذلك الكتاب الذي لا يزال يفتر للباحثين عن مكنون الإعجاز البلاغي ويمدهم بتحف الكنوز المعرفية فوقفنا في هذه الصفحات على ظاهرة الثنائية في كلام الإمام علي (عليه السلام) ولسعة الموضوع اخترت ثنائية الحق والباطل بوصفها أنموذجاً يسير عليه الباحثون لتقصّي هذا الموضوع فوسم البحث بعنوان: (ثنائية الحق والباطل في خطب نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام)- دراسة في انتاج المعنى)، وقد اقتضت طبيعة البحث أنْ يقسم على تمهيدٍ ومبحثين؛ جاء التمهيد على قسمين تناولت في الأول منهما أهمية كتاب نهج البلاغة وقيمته الأدبية ثم تلاه القسم الثاني وفيه تم توضيح مصطلح الثنائية وكيفية تحققها في الكلام وما تنتجه من قيمة بلاغية تظهر في أنواع التضاد والمقابلة والمشاكلة فتعطي الأسلوب الأدبي كثيرا من المناغمة التي تطرب المتلقي وتثير عواطفه وتشده إلى الاستماع وتحبب له

القراءة، ثم جاء المبحث الأول الذي خصص لبيان مفهوم الحق والباطل في نهج البلاغة وفيه اتضح أن الحق ما كان موجوداً مثل (القوانين المسيطرة على نظام الخلقة). والباطل ما ليس موجوداً وهذا يتحقق في عدد من الأمور وردت في كلام الإمام (عليه السلام) وتم الوقوف على شواهد من كلماته الخالدة، أما المبحث الثاني فقد خصص لتجليات المعنى لدلالة ثنائية الحق والباطل وظهوره في ثنائيات متقابلة في المعنى يتجسد فيها مفهوم الحق والباطل وقد وقف البحث على سبع ثنائيات هي: المعرفة والجهل، والضلالة والهدى، والدنيا والآخرة، والجهاد والقعود، والجنة والنار، والهوى والعقل، والفتنة والدين؛ وختم البحث بخاتمة بيّنت خلاصة البحث، وأهم المسائل التي توصّل إليها البحث ثم جاءت قائمة المصادر لتحدد روافد البحث.

وما يسعنا بعد هذا إلا أنْ نشكر الله سبحانه ونرجو منه أن يوفقنا لكل ما يحبه ويرضيه عنا ويجعلنا عباداً مخلصين له في أرضه ونكون قد قدّمنا ثمرة تجنى لوقتها لمن أفاء تحت أغصان اللغة العربية، ونسأله تعالى أن يتجاوز عن أخطائنا إنه غفور رحيم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد

القسم الأول: أهمية نهج البلاغة ومكانته وسماته:

كتاب نهج البلاغة هو مجموع ما اختاره الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) من خطب ورسائل وحكم مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام). وشمل إحدى وأربعين ومئتين خطبة، وتسع وسبعين كتاباً، وثمانيَ وأربعين حكمة، وليس هذا كلّ كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)؛ لأن الشريف الرضي كان قد اختار ما ارتأته نفسه،

وثمة خطب لم يذكرها كما هو الحال مع خطبة اللؤلؤة، وخطبة البيان[1]، وكان المسعودي (ت ٣٤٦هـ) قد ذكر أنّ للإمام أكثر من أربعمئة خطبة بقوله: «والذي حفظ الناس من خطبه في سائر مقاماته أربعمئة خطبة ونيفاً وثمانين»[2].

لنهج البلاغة سمات وخصائص أسلوبية عالية المضامين، بينت خصائص أسلوب الإمام علي (عليه السلام)، الذي من مزاياه أنه أسلوب ذو نفس عالٍ ينساب بسرعة، ويتلون مع حال المخاطَب، و«عليه مسحة، وطلاوة من الكلام الإلهي، وفيه عبقة، ونفحة من الكلام النبوي»[3]، فقد كان الإمام علي (عليه السلام) الطالب الأول في مدرسة القرآن، وتحت رعاية معلمها النبي المصطفى محمد (صلى الله عليه وآله)؛ لذا أجاد الإمام (عليه السلام) في محاكاة تلك المدرسة وذلك المعلم.

يتربع نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) على قمة الأدب الإسلامي مثالاً رائعاً ومتفردا لما أنتجه الأدباء الإسلاميون على مرّ العصور من ذلك الأدب الرفيع. ومن هنا يحاول هذا البحث أن يستظهر سمة أسلوبية جاءت في كلام الإمام علي (عليه السلام) عن طريق خطبه في كتاب نهج البلاغة، متخذاً في هذا الاستظهار منهجاً أسلوبياً يتمايز في أسسه وأصوله عن مناهج النقد الأدبي الأخرى. بوصفها دراسةً تعمل على كشف التركيب الضدّي والجدلية التي تتخلله حتى تصبح منطلقاً لوعي نقدي أعمق لا يكتفِي بمحاولة فهم الظواهر الفنية من حيث هي حركة على السطح أفقية، بل يغوص في بنيتها الضدية ليجلو طبيعة هذه الثنائية الفاعلة التي تتراشق فيها موضوعات مختلفة وأساليب متعددة. فالتحليل لهذه الثنائية لا يكتفي بمجرد فهمها بل

يتعدى ذلك إلى إبراز شبكة من العلاقات بينها فقد تكون هذه العلاقات علاقات نفي وإثبات وتوافق وتناقض أو تناغم وتنام[٤].

ويكتمل الجمال المضموني في أدب نهج البلاغة بما يوازنه من جمال التعبير والأسلوب الفني الملائم فهو يحقق التوازن المطلوب بين الشكل والمضمون في العمل الأدبي. وبهذا كله يكتسب هذا الأدب صفته العالمية ويجتذب اهتمام الإنسان في أقطار المعمورة، ويصبح أنموذجاً راقياً للأدب العربي. وما ينبغي التأكيد عليه من مظاهر التوازن في الأدب عامة، هو التوازن بين الثابت والمتغير في هذا الأدب «فالجانب الفني في نظرية الأدب هو الجانب المتغير وهو الجانب الذي قد يغتني بما يتوصل إليه الإبداع الفني في أصقاع الأرض كافة. والمجال الذي تتمذهب فيه نظرية الأدب هو المجال الفكري أو الخط التصوري العام عن الكون والحياة والإنسان وهو المجال الذي تتفرد فيه وتختلف عن أي من النظريات القديمة أو الحديثة ولا يمكن أن تكون فيه عالة على أي مذهب أو عقيدة أو تصور، بل هي تعتقد أنها قيّمة على غيرها وقدوة لغيرها ووسط يهتدي به غيرها»[٥]، قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[٦]، وبهذا يتأكد الموقف الوسطي للنظرية الإسلامية بصدد الثابت والمتحول، في تيار الإبداع الأدبي إذ يقوم على رفض السكون التام من جهة والحركة العمياء من جهة أخرى، احتراماً لعناصر الديمومة والثبات من جهة وانفتاح على قوى التجديد والتغيير والتحول من جهة أخرى[٧].

وبهذا يكون الأدب الإسلامي جنسا يقوم على أسس وقواعد

رصينة له أعرافه الأدبية التي تبلورت عبر بديهيات لا تقبل النقاش مع نزعة تميل إلى التجدد؛ فنجده في الأدب الإسلامي من العمق والاصالة والصفاء والصدق والفضيلة والمتعة وكل حق وخير وجمال يرسخه التصور الإسلامي في نفس الأديب المؤمن بالله ورسوله. فمن الحق «أن الإيمان وصفاء النفس والاشتغال بالله والعزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاءً حسّاً ولطافة نفس وعذوبة روح ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة واقتداراً على التعبير البليغ، فتأتي كتابته كأنها قطعة من نفس صاحبها وصورة لروحه، خفيفة على النفس مشرقة الديباجة لطيفة السبك بارعة التصوير»[٨].

وخير مثال للأدب الإسلامي ما تجده في كتاب نهج البلاغة لأمير المؤمنين (عليه السلام) ذلك الكتاب الذي أخرس البلغاء وفقع عين البلاغة وألهم الأدباء والبلغاء والعلماء فكان دليلاً للنقاد، كونه التزم بالواقع ولم يضع في أتون الترّهات وينجرف في متاهات الأفكار الضالة والأهواء الفاسدة والخيالات السقيمة، بعيداً عن رحاب الإيمان والتقوى ومراقبة الخالق العظيم فيما يصدر عنه سبحانه وتعالى، ولا بديل ينعش البشرية إلاّ في الأدب الإسلامي، أدب العقيدة والرسالة والواقع والحقيقة والمعرفة والجهاد في سبيل الله كما تجده في نهج البلاغة.

القسم الثاني: الثنائية مفهوماً و موضوعاً :

الثنائية لغة يقال: «ثنى الشيء ثنْياً: ردَّ بعضه على بعض، والاثنان ضعف الواحد. فأما قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[٩]، فمن التطوع المشام للتوكيد وذلك أنه قد غَنِي بقوله إلهين عن اثنين وإنما فائدته التوكيد والتشديد ونظيره

قوله تعالى: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [١٠] أكد بقوله الأخرى وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [١١] فقد علم بقوله نفخة أنها واحدة فأكَّد بقوله واحدة والمؤنث ثنتان تاؤه مبدلة من ياء ويدل على أنه من الياء أنه من ثنيت لأن الاثنين قد ثنى أحدهما إلى صاحبه وأصله ثني يدلك على ذلك جمعهم إياه على أثناء وقوله ثاني اثنين أي هو أحد اثنين»[١٢]. «وثنى الشيء جعله اثنين، وجاء القوم مثنى مثنى أي اثنين اثنين[١٣] وثنيت الشيء بالتثقيل جعلتهُ اثنين»[١٤]. وسمّى فاتحة الكتاب مثاني في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالقرآن الْعَظِيمَ﴾[١٥]. قال وسمّى القرآن مثاني لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه ويسمّى جميع القرآن مثاني أيضاً لاقتران آية الرحمة بآية العذاب[١٦].

الثنائية اصطلاحاً:

إن فكرة الثنائية فكرة قديمة ترجع إلى بداية الخلق الأولى، عندما خلق الله تعالى آدم (عليه السلام)، وخلق له من جنسه حواء تؤنس وحشته، وتبدد وحدته، وأدخلهما الله تعالى الجنة ليبدآ رحلة الحياة معاً في ثنائية تكون أول ثنائية للجنس البشري، لكن الشيطان أزلّهما فأخرجهما الله تعالى من الجنة، حيث قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[١٧].

ومن هنا نشأت ثنائية أخرى تحدد السلوك البشري هي الخير والشر التي تمثلت بدخولهما الجنة والعيش في نعيمها ولذائذها وخروجهما منها بعد الخطيئة التي حرفت مسارهما عن طريق الخير وأوامر الرب. «والثنائي من الأشياء

ما كان ذا شقين»[١٨]، والثنائية هي «القول بزوجية المبادئ المفسّرة للكون، كثنائية الأضداد وتعاقبها، أو ثنائية الواحد وغير المتناهي، أو ثنائية عالم المثل وعالم المحسوس عند الفيثاغوريين»[١٩]. وقد تكون العلاقة التقابلية الثنائية قائمة على التضاد بين مدلولات حديها، لذلك فإن حدي هذه العلاقة الضدية «لا يجتمعان في شيء واحد من جهة واحدة»[٢٠]. وقد تكون العلاقة التقابلية الثنائية غير ضدية تقوم على التوافق والتكامل بين حديها، فالثنائية القائمة بين الرجل والمرأة، والثنائية القائمة بين الدال والمدلول فالدال هو الصوت، والمدلول هو المعنى.

لقد ذكر البلاغيون في باب علم البديع أنواعاً من المحسنات المعنوية التي تقوم على الجمع بين الشيئين في الكلام على حذو واحد[٢١]، فيكون الكلام مشتملاً على لفظين بينهما علاقة في المعنى وهذه العلاقة تتوضح في التضاد والتقابل والمشاكلة والمجانسة والاشتراك، ومما ذكره البلاغيون من هذه العلاقات بوصفها أنواعا من المحسنات المعنوية هو الطباق والمقابلة والتضاد فهذه الأنواع تقوم على الجمع للفظتين في كلامٍ أو بيتٍ من الشعر واحد، ويكون بين اللفظتين علاقة وارتباط في المعنى[٢٢].

لقد أدخل لفيف من علماء البلاغة في فن الطباق أسلوب المقابلة والتضاد والمشاكلة، ومن هؤلاء العلماء القزويني في الإيضاح الذي قال: ودخل في المطابقة ما يخص باسم المقابلة وهي أن يأتي المتكلم بمعنيين متوافقين ثم يقابلهما[٢٣]، وتترتب المقابلة من طباق وملحق به؛ مقررين أن المقابلة أعم من المطابقة؛ وهي التنظير بين الشيئين وبين ما

يخالف وما يوافق بينهما، فالمطابقة لا تكون إلّا بالأضداد والمقابلة تكون بالأضداد وغير الأضداد ولكنها بالأضداد أعلى رتبة وأعظم موقعاً.

إن الأسلوب الذي يقوم على مبدأ الثنائية هو فنٌ بديع ذو تأثير خالص متميز، يتجلى هذا التأثير في أنه يجمع بين الأضداد وهذا الجمع يخلق صوراً ذهنية ونفسية متعاكسة يوازن فيما بينها عقل القارئ ووجدانه فيتبين ما هو حسن منها ويفصله عن ضده. ومن هنا فإن هذا الفن البديعي يستوي بحد ذاته معرضاً للمعاني الذهنية والنفسية والعقلية المتنافرة فتترك في الشعور آثاراً عميقة بأسلوبها الموازن المقارن. وتطبيقا لهذا الفن البديعي؛ وسوف يقف الباحث على ثنائية الحق والباطل في كلام الإمام علي (عليه السلام) ليبين المعاني المتحققة والصور الفنية المنتجة بهذه الطريقة الأسلوبية إذ إن البناء التركيبي الثنائي والأداء الأسلوبي في خطاب نهج اللاغة يكشف بوضوح حضوراً بارزاً لثنائية الحق والباطل المتقابلة بالتضاد بمعنى أن كل واحد منهما يمثل ضداً للآخر فالحق ضده الباطل[٢٤]، وينتظم في نهج البلاغة كثير من الثنائيات المتضادة إلا أن إمعان النظر يرينا أن التقابل بين الحق والباطل يتجلى في أغلب تلك الثنائيات. لهذا كان اختيار هذه الثنائية كونها أصلاً دلالياً ومعنى عميقا لعدد من الدلالات والمعاني التي سيكشفها البحث.

فلو قلنا مثلاً إن هناك ثنائية الدنيا والآخرة وثنائية التوحيد والشرك وثنائية الإيمان والكفر وثنائية العقل والجهل وثنائية الصدق والكذب وغيرها. من الثنائيات الموجودة في نهج البلاغة، إلا أن هذه الثنائيات يمكن أن يندرج خطابها ضمن موضوعات الحق والباطل المذكورة

في نهج البلاغة.

فالبنية الضدية في الثنائيات تشحن الخطاب في نهج البلاغة بالحركة التي «تستوعب في صلبها مفارقات الحياة وكل ما فيه يوحي بحركة الجدل التي تعتمل في الواقع»[٢٥]. فالمخاطب لم يعِ وعياً كاملاً بالشيء إلا قدَّم له نقيضه مثلما لم يعِ بالجمال إلا إذا قدمنا له الوجه الآخر للحقيقة ألا وهو القبح[٢٦].

المبحث الأول

ثنائية الحق والباطل في نهج البلاغة

يعرف الحق بأنه (عبارة عن الواقعيات)[٢٧]، ويقسم على قسمين: الحق التكويني؛ والمراد به واقعيات عالم الوجود. والحق التشريعي: والمراد به القوانين الإلهية التي شرعت من أجل الفرد والجماعة في ضوء المصالح والكفاءات الذاتية والاكتسابية[٢٨]. ونقيض الحق الباطل الذي «يتمثل بالخيال والسراب الذي لا واقع له ولا وجود سوى في عالم التصور والوهم»[٢٩]. وعلى هذا يمكن أن نقول أن الحق ما كان موجوداً مثل (القوانين المسيطرة على نظام الخلقة). والباطل ما ليس موجوداً بل يزعمون حوله مزاعم كاذبة.

إن ما هو موجود ولا بد أن يكون له وجود مثل (العدالة والنظام العام) هو الحق، وإن ما هو موجود ويجب ألا يكون له وجود، مثل (الظلم والجور، والانحرافات الخلقية، والاعتداءات البشرية، والمزاعم الكاذبة و...) هو الباطل. فالباطل يتجسد في العرقلة لجميع القوانين المنصوص عليها إلهياً محاولاً التمرد عليها.

إذن المقابلة بين الحق والباطل هي (مقابلة ضدين لا واسطة بينهما)[٣٠]. أي لا وجود لطريق وسط بينهما. وقد بين القرآن الكريم الهدف من إرسال

الرسل هو إقامة الحق وقهر الباطل، لأن على أساسها يقوم العدل مصرحاً بذلك الباري سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بقوله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾(٣١).

تتجلى ثنائية الحق والباطل في نهج البلاغة في صورة صراع بين الخير والشر. فالحق يمثل الخير والباطل يمثل الشر، فالعلاقة بينهما قائمة على النفي والتناقض لأن الحق هو الواقع والباطل هو السراب الذي لا وجود له فيحسبه الظمئان ماءً وهو في حقيقته لم يكن شيئاً، وقد صور القرآن الكريم هذا الصراع وبين نتائجه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ﴾(٣٢). فالحق هو الثابت الباقي دائما وأبدا، أما الباطل فهو الزائل الذي لا بقاء له أو أن فترة بقائه مدة محدودة. ومن هنا فقد اكتسبت الذات الإلهية التي تعد أعظم من كل واقع أول اسم وهو الحق والإنسان كلما اقترب من الله فهو على الحق وكلما ابتعد عنه سبحانه وتعالى اقترب من الباطل(٣٣).

كثيراً ما تعرض الإمام علي (عليه السلام) لهذه الثنائية ملاحظاً أن الناس قد أخذت تبتعد عن طريق الحق وتروج الباطل خدمة لمصالحها لذلك يخاطب الناس ناصحاً لهم بعدم الاستماع إلى الغيبة والتسرع ورمي الناس بالباطل والتفريق بين الحق والباطل قائلاً: «أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي وَتُخْطِئُ السِّهَامُ وَيُحِيلُ الْكَلَامُ وَ بَاطِلُ ذَلِكَ يَبُورُ وَاللهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ أَمَا

إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ»[٣٤]. وقد وضح عليه السلام معنى القول المتقدم واختصره قائلاً «الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ»[٣٥].

فهذا يدل دلالة واضحة على أن ما تسمعه يحتاج إلى الدليل والشاهد. أما ما تراه فلا يحتاج إلى أي شاهد أو دليل لأن الدليل عليه هو عينه التي رأى بها.

فدعوة الإمام (عليه السلام) صريحة إلى تثبيت أسس الحق وهد الباطل من أساسه كانت من واجبه الذي وكله الله إليه لكونه خليفة المسلمين يقول (عليه السلام): «اللهمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ وَلَا الْتِمَاسَ شَيءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ وَلَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ»[٣٦]. فمهمة الإمام (عليه السلام) هي تصحيح الانحراف في المجتمع وإعلاء كلمة الحق وإزهاق الباطل إذ يرجع الإمام (عليه السلام) السبب في عدم أخذ الحق مكانه الطبيعي وذلك لتخاذل بعضهم عن نصرته يقول (عليه السلام): «أَيُّهَا النَّاسُ لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ لَكِنَّكُمْ تِهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَعَمْرِي لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ»[٣٧]. فكان في خطابه (عليه السلام) كثيراً ما يعظم بسلوك طريق الهدى وإن قل سالكوه كما يقول «أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ»[٣٨]. فطريق الحق وهو الطريق الوحيد الذي من تبعه نجى ومن تخلف عنه هلك وهوى؛ يقول (عليه السلام): «أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ»[٣٩].

فتأكيد الإمام (عليه السلام) على ضرورة عدم الاستيحاش في طريق الحق لقلة سالكيه وأنس الناس للسير في طريق الباطل لكثرة سالكيه لهو دليل واضح على كثرة أتباع الباطل وقلة أتباع الحق إلّا أن الكثرة ليست هي الدليل على الصواب فطريق الباطل سرعان ما يتدهور ويؤذي سالكه فحكومة الباطل سرعان ما تتلاشى لأنها تستند على أسس واهية.

وقد أشار الإمام (عليه السلام) إلى المعنى نفسه في إحدى خطبه وهو يخاطب أحد الصحابة بقوله: «لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلَّا الْحَقُّ وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا الْبَاطِلُ»(٤٠). فيكون غرض الإمام علي (عليه السلام) من إيراد ثنائية الحق والباطل ما هو إلّا وضع الأمور موضعها بسبب كثرة البصائر الزائغة عن الحق، فحقيقة الصراع بين الحق والباطل هو صراع بين الاستقرار المتأتي من إصابة الواقع والاضطراب وعدم الاستقرار المتمثل في السعي خلف السراب.

المبحث الثاني:
تجليات المعنى لثنائية الحق والباطل في نهج البلاغة

ومما تجدر الإشارة إليه أن العلاقة وثيقة بين الحق والإيمان والتوحيد والصدق والنور والخير والعلم والوضوح لأن في كل ذلك سعيا نحو الاستقرار وهو المبدأ الذي يسعى العاقل إلى بلوغه وهو ما أكده وأراده الإمام علي (عليه السلام) في كلماته كونه المحرك والدافع وراء خطابه كونه الوسيلة الوحيدة لتحقيق السعادة في الدارين.

وفي المقابل فإن هناك علاقة وثيقة بين الباطل والكفر والشرك والكذب والظلام والشر والجهل التي أراد الإمام (عليه السلام) من المخاطَب تجنبها والكف عنها والابتعاد عنها وعدم الخوض فيها لأن في كل منها منزلقا

خطيرا يوصل إلى عدم الاستقرار وهو المبدأ الذي لا يسعى إلى بلوغه أي عاقل.

وسوف نستعرض بعض هذه العلاقات عبر ذكر بعض المعاني التي خرجت إليها دلالة ثنائية الحق والباطل والتي وردت في كلام الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة وبحسب المطالب الآتية.

أولاً: المعرفة والجهل:

يقول (عليه السلام) في صفة خلق آدم (عليه السلام) «ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ»(٤١).

فالمعرفة أشرف صفة اختص بها الإنسان وأقوى سلاح يتحصن به ويدافع به عن نفسه وأشرف أنواع المعرفة هو معرفة الخالق سبحانه وتعالى ومعرفة الحقائق التي بينها للإنسان وسطرها له في كتابه العزيز، فالمعرفة تكشف الأسرار وما يتوجب على العبد أن يتبعه من أجل الوصول إلى الحقيقة. فبالمعرفة يستطيع المكلف أن يعرف أصول التفسير ويستطيع بها أن يدرك مغازي الأحاديث ومفادها. ويقدر على إدراك أسرار الكلام ودقائق معانيه.

ثانياً- الضلال والهدى.

ومن خطبة له (عليه السلام) وهي من أفصح كلامه (عليه السلام) وفيها يعظ الناس ويهديهم من ضلالتهم و يقال إنه خطبها بعد قتل طلحة والزبير، فقال «مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ لَمْ يُوجِسْ مُوسَى (عليه السلام) خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ وَدُوَلِ الضَّلَالِ الْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ»(٤٢).

يقول الإمام (عليه السلام): إن موسى لما أوجس الخيفة بدلالة قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾

(٤٣). لم يكن ذلك الخوف على نفسه وإنما خاف الفتنة والشبهة الداخلة على الناس عند إلقاء السحرة حبالهم وعصيهم فخيل إليه من سحرهم أنها تسعى(٤٤).

وقد تابع الخوئيُّ ابن أبي الحديد في توجيه دلالة (أشفق)، إذ قال: «أشفقَ بصيغة التفضيل صفةُ خيفةٍ، ويُحْتَمَل أنْ يكونَ بصيغة الماضي واستدراكاً على سابقه، أي لم يوجسْ موسى خيفةً على نفسِه، ولكنه أشفقَ من غلبة الجُهّال»(٤٥)، ومن تدبّر سياق الخطبة التي ورد فيها هذا النص، يترجَّح أنَّ دلالة (أشفق) فعلٌ ماضٍ دال على معنى الاستدراك بعد النفي، لا أنه اسم تفضيل، فالإمام (عليه السلام) يتأسى بموسى (عليه السلام) وقد اتهمه مَن اتهمه بالخيفة من السحرة، فبيّن الإمام (عليه السلام) لمخاطبيه أنه لا يخاف على نفسه، بل يخشى غلبة أهل الجهل، معتبراً في ذلك بحال موسى (عليه السلام)، ولا شكّ في أن حمل النص على هذه الدلالة ينزِّه النبيَّ موسى (عليه السلام) ويبرِّئه ممّا نُسِب إليه من الخيفة، وكذلك هو الإمام (عليه السلام) لا يخاف على نفسه من الأعداء الذين نصبوا له الحبائل ورصدوا له المكائد وسعَّروا عليه نيران الحرب، وإنما الخوف من أن يفتتن المسلمون بشبهتهم وتمويهاتهم فتقوى دولة الضلال وتغلب كلمة الحق.

أما في ساعة خطبته وهي بعد أن قتل السحرة وأوئدت الفتنة بقتل أصحابها فيقف أمير المؤمنين (عليه السلام) قائلاً (اليوم تواقفنا...) تواقف القوم على الطريق: أي وقفوا كلهم عليها؛ يقول اليوم اتضح الحق والباطل وعرفنا أصحاب الفتنة نحن وأنتم(٤٦).

ثالثاً- الدنيا والآخرة

جاء في كلام له (عليه السلام) لأبي ذر (رحمه الله) لما أخرج إلى الربذة: «**يَا أَبَا ذَرٍّ**

إِنَّكَ غَضِبْتَ لله فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ وَخِفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلى مَا مَنَعْتَهُمْ وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً وَالْأَكْثَرُ حُسَّداً وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتْقاً ثُمَّ اتَّقَى اللهَ لَجَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلَّا الْحَقُّ وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا الْبَاطِلُ فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لَأَحَبُّوكَ وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لَأَمَّنُوكَ»(٤٧).

نرى أنه (عليه السلام) قد عدّ أن الدنيا فانية ومولية بسرعة، والآخرة باقية، وأن اتباع أهواء النفس ومشتهياتها الدنيوية تصد عن الحق الباقي ومنه الآخرة، وطول الأمل يشغل الإنسان بالدنيا وينسيه الآخرة. ولهذا ينهى أبا ذر رضوان الله عليه عن قبول دنيا الحاكمين وأمره أن يستوحش منها لأنها باطل، وأن يستأنس بالحق الذي هو غير الدنيا وأهلها وهو الله والآخرة. فقد جعل قبوله لدنياهم باطلاً وأمره أن يستوحش منه بل أن لا يستوحش من غيره، وتركه لدنياهم حقاً يجب أن يستأنس به وهو الآخرة وما بعد الحق إلا الضلال.

رابعاً- الجهاد والقعود

ومن كلام له (عليه السلام) لما أشير عليه بألا يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال وفيه يبين عن صفته بأنه (عليه السلام) لا يخدع، يقول: «وَاللهِ لَا أَكُونُ كَالضَّبُعِ تَنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا وَيَخْتِلَهَا رَاصِدُهَا وَلَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلى الْحَقِّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ وَبِالسَّامِعِ الْمُطِيعِ الْعَاصِيَ الْمُرِيبَ أَبَداً حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي فَوَ اللهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّي مُسْتَأْثَراً عَلَيَّ مُنْذُ قَبَضَ اللهُ نَبِيَّهُ [صلى الله عليه وآله] حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا»(٤٨).

في هذه الخطبة صورة تمثيلية رائعة

تظهر براعة الإمام (عليه السلام) وسعة علمه ومعرفته وقد صور غايته الكلامية بصورة من يتحايل على صيد فريسته العنيدة بأسلوب المخادعة وهي صورة صائد الضبع؛ يأتي صائد الضبع إلى وجرها فيضرب بعقبه الأرض عند باب مغارها ضرباً خفيفاً وذلك هو اللدم.

يقول خامري أم عامر مراراً بصوت ليس بشديد: أي ناديها وساميها وكرري القول عليها. فتنام على ذلك فيدخل إليها الصائد فيجعل الحبل في عراقيبها ويجرها فيخرجها من وجرها.

يقول الإمام علي (عليه السلام): إن حرب جهاد الناكثين أصبح واجباً ولا يصح القعود والسكوت لحيلهم وأفعالهم وأقوالهم، وسأحارب من عصاني حتى أموت؛ فلا أقعد عن الحرب والانتصار لنفسي وسلطاني فيكون حالي مع القوم كحال الضبع مع صائدها فأكون قد أسلمت نفسي فذلك هو فعل الأحمق العاجز، ثم يعقب على كلامه بأن الاستئثار عليه (عليه السلام) والتّقلّب عليه أمر لم يتجدد الآن ولكنه كان منذ أن قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله) في إشارة منه بأحقيته بالخلافة وغصبهم حقه فيها[٤٩].

خامساً- الجنة والنار:

وهذه الثنائية فيها إشكالية عقدية وهي أن الجنة والنار كلاهما حق وبذلك لا تشترك في الدلالة المجملة مع ثنائية الحق والباطل بوصف أن كل ركن من لفظي التركيب يقابل معنى اللفظ الذي يناظره، وهذا صحيح من الجانب العقدي أما غاية البحث هو بيان دلالة ثنائية الألفاظ التي تستند إلى التقابل لتكون سمة أسلوبية في كلام المبدع وما ينتج عن هذه السمة من قوة تأثيرية على الفكر والنفس. فضلاً عن وجود قرينة أخرى تلازمية وهي أن الجنة

عاقبة لأهل الحق والنار عاقبة لأهل الباطل؛ من هذا الجانب نبين كيفية ورود هذه الثنائية في كلام الإمام علي (عليه السلام).

قال (عليه السلام) في خطبة له بين فيها جملة من القضايا جاء في أولها "الحمد لله غير مقنوط من رحمته" وفيها أحد عشر تنبيها يقول فيها: «**أَلَا فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى يَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى**»(٥٠).

قال السيد الشريف رضي الله عنه: وأقول إنه لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام وكفى به قاطعا لعلائق الآمال وقادحا زناد الاتعاظ والازدجار ومن أعجبه قوله (عليه السلام) ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق والسبقة الجنة والغاية النار فإن فيه مع فخامة اللفظ وعظم قدر المعنى وصادق التمثيل وواقع التشبيه سرا عجيبا ومعنى لطيفا وهو قوله (عليه السلام) والسبقة الجنة والغاية النار فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين ولم يقل السبقة النار كما قال السبقة الجنة لأن الاستباق إنما يكون إلى أمر محبوب وغرض مطلوب وهذه صفة الجنة وليس هذا المعنى موجودا في النار نعوذ بالله منها فلم يجز أن يقول والسبقة النار بل قال والغاية النار لأن الغاية قد ينتهي إليها من لا يسره الانتهاء إليها ومن يسره ذلك فصلح أن يعبر بها عن الأمرين معا فهي في هذا الموضع كالمصير والمآل قال الله تعالى: ﴿**قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ**﴾ ولا يجوز في هذا الموضع أن يقال سبْقتكم بسكون الباء إلى النار فتأمل ذلك فباطنه عجيب وغوره بعيد لطيف وكذلك

أكثر كلامه (عليه السلام) وفي بعض النسخ وقد جاء في رواية أخرى والسُّبْقة الجنة بضم السين والسبقة عندهم اسم لما يجعل للسابق إذا سبق من مال أو عرض والمعنيان متقاربان لأن ذلك لا يكون جزاء على فعل الأمر المذموم وإنما يكون جزاء على فعل الأمر المحمود.

فالإمام يعقد مقارنة بين المنفعة والمضرة وتلازم الحق بالنفع على نقيض الباطل الذي يتلازم مع الضرر. وما تؤول إليه هذه الملازمة من أن النفع هو نتيجة الهداية والردى الذي هو نتيجة الضلال.

فالإمام يقول من أعجب العجائب من يؤمن بالجنة كيف يطلبها وينام. ومن أعجب العجائب من يوقن بالنار كيف لا يهرب منها وينام. أي لا ينبغي أن ينام طالب هذه ولا الهارب من هذه. فالإمام (عليه السلام) يأمر بأن يكون العبد عاملاً أيام عدم الخوف مثل عمله وإخلاصه وانقطاعه إلى الله أيام العوارض[٥١].

يبيَّن البحرانيُّ أن الضمير المجرور في (طالبها) من قول الإمام (عليه السلام) أعلاه يعود إلى المفعول به الأول للفعل (رأى) القلبي، وهو مفعولٌ مقدَّرٌ تعلَّق به الجار والمجرور (كالجنة) والتقدير: «لم أرَ نعمةً كالجنةِ نام طالبُها»[٥٢].

أما الضمير في (هاربها)، فلم يرجعْه البحراني إلى (كالنار) كسابقه، وعلل ذلك بأنْ «لا تعلقَ بينه وبينها، فوجب أن يُقدَّر محذوفٌ يكون موصوفاً لكاف التشبيه، فإنها بمعنى المثل، كأنَّه قال: ما رأيتُ نقمةً مثل النار نام الهاربُ منها»[٥٣]. والذي يبدو للباحث أن مرجع الضمير إلى (الجنة والنار)، فإن العاقل ينبغي أن يطلب الجنة، ويهرب من النار، لأن الخطبة للترغيب في الجنة والترهيب من النار، ولا داعيَ إلى هذا التكلُّف

في المعنى للتفريق بين ما يرجع إليه الضميران.

سادساً- اتباع الهوى واتباع العقل:

ومن كلام له (عليه السلام) وفيه بيان لما يخرب العالم به من الفتن و بيان هذه الفتن: «**إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ وَ أَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللهِ وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالًا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللهِ فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ وَ لَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَ يَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى**»[٥٤].

يقول إن المذاهب الباطلة والآراء الفاسدة التي يفتتن الناس بها أصلها اتباع الأهواء وابتداع الأحكام التي يقال بها عن عدم معرفة، ويخالف فيها كتاب الله وسنة نبيه. وتحمل العصبية والهوى على تولي أقوام قالوا بها على غير وثيقة من الدين ومستند وقوع هذه الشبهات امتزاج الحق بالباطل في النظر الذي هو الطريق إلى استعلام المجهولات، فلو أن النظر تخلص مقدماته وترتب قضاياه من قضايا باطلة لكان الواقع عنه هو العلم المحض وانقطع عنه ألسن المخالفين وكذلك لو كان النظر تخلص مقدماته من قضايا صحيحة بأن كان مبنياً على فساد، لظهر فساده لطلبة الحق، وإنما يقع الاشتباه لامتزاج قضاياه الصادقة بالقضايا الكاذبة.

ولتوضيح هذه المسألة يضرب شارح النهج أمثلة عقدية لبعض المذاهب فيقول: إن فساد عقيدة من قالوا بجواز رؤية الباري سبحانه وتعالى مبنية على مقدمتين إحداهما حق والأخرى باطلة فيقولون في مقدماتهم: (إن الباري تعالى ذات

موجودة وكل موجود يصح أن يرى)؛ فإحدى هاتين المقدمتين صحيحة والأخرى باطلة فالتبس أمر النتيجة على كثير من الناس.

ومثال ما كانت مقدماته جميعها باطلة قول قوم من الباطنية: (إن الباري لا موجود ولا معدوم فكل ما يكون موجوداً ولا معدوماً يصح أن يكون حياً قادراً)؛ فالباري تعالى يصح أن يكون حياً قادراً. فهاتان المقدمتان باطلتان لا جرم أن هذه المقالة مرغوب عنها عند العقلاء.

ومثال ما تكون مقدماته حقاً كلها؛ (العالم متغير وكل متغير ممكن فالعالم ممكن) فهذا مما لا خلاف فيه عند العقلاء.

فالإمام (عليه السلام) يحذر من الميدان الذي يمكن للشيطان أن يلج فيه ويتحرك من خلاله فيغوي الناس ويشتت عقولهم ويوسوس في نفوسهم. وقد ذكر القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيدًا﴾[٥٥]. وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[٥٦].

لقد بين الإمام علي (عليه السلام) أنه إذا امتزج في النظر الحق بالباطل وتركبت المقدمات من قضايا صحيحة وفاسدة تمكن الشيطان من الاخلال والإغواء والوسواس إلى المكلف وخيل له النتيجة الباطلة وآماله إليها. وزينها عنده بخلاف ما إذا كانت المقدمات حقاً كلها فإن الشيطان لا يقدر على أن يحيل له ما يخالف العقل الصريح؛ ولا يكون له مجال في تزيين الباطل، فالأوليات هي الشيء الأهم فلا سبيل للإنسان إلى جحدها وإنكارها إذا كانت صحيحة وواضحة ولا طريق إلى الشيطان أن يتدخل فيها.

على أن المسألة لا تقف عند هذا بل

يوجب الإمام (عليه السلام) على المكلف أن لا يركن إلى الأهواء فيكون أسيراً لغيره ومواليا يسلم قراراته لوليه فمن كان وليه الشيطان كان استعداده لاتباع الباطل سهلاً فمن تمرن على اتباع الهوى وزهد في تحقيق الأمور العقلية على وجهها تقليداً للأسلاف ومحبةً لأتباع المذاهب المألوفة فذلك هو الذي يستولي عليه الشيطان ويضله. وينجو من خالف الهوى ورغب في تحقيق الأمور وحكم العقل والشرع واتبع الله وأطاعه فكان من الذين سبقت لهم من الله الحسنى وهم الذين يتبعون محض العقل ولا يركنون إلى التقليد ويسلكون مسلك التحقيق وينظرون النظر الدقيق ويجتهدون في البحث عن مقدمات أنظارهم[٥٧].

سابعاً-الفتنة والدين:

يقول الإمام علي (عليه السلام) في خطبة له: «**وَايْمُ الله لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ**»[٥٨]. فقوله (عليه السلام) فيه بلاغة عالية لوصف الفتنة وتمكنها من الناس والتفافها على الدين وفيه أيضا بيان لمكانته (عليه السلام) ومنزلته في رسالة الإسلام وقدرته على قيادة الشريعة فقد جعل الباطل -الذي قد أخذ يظهر في الإسلام بعد وفاة النبي محمد (صلى الله عليه وآله)- شيئا مشتملاً على الحق وغالباً عليه ومحيطاً به. فلا سبيل إلى إظهار الحق إلّا به (عليه السلام) فهو يقسم إنه سيؤدي دوره الرسالي في إزهاق الباطل وإظهار الحق وإنه سيبقر الباطل ويستخرج الحق من جوف الباطل كون الحق موجودا وكامنا فيه.

وفي المعنى نفسه يقول الإمام علي (عليه السلام) عند خروجه لقتال أهل البصرة: «**أَمَا والله إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا، حَتَّى وَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا، مَا عَجَزْتُ ولاَ جَبُنْتُ، وإِنَّ مَسِيرِي هَذَا لِمِثْلِهَا، فَلَأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ**

اَلْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ، مَا لِي ولِقُرَيْشٍ واللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، ولَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ»(٥٩).

أرجع البحراني الضمير المنصوب في قول الإمام (ساقتها) على غير مذكور، فلم يجرِ ذِكْرٌ صريحٌ لمدلولِه، وإنَّما يُتَحَصَّلُ ذلك المدلول من فَهْمِ المخاطَبِ، وتقدير المدلول هو (كتائب الحرب)، لأنه المفهوم من السياق، قال: «الضميرُ في (ساقتها) لكتائب الحرب، وإنْ لم يَجْرِ لها ذكرٌ صريحٌ، بل ما يحصل من معنى الذكر وهو الناس، فكأنه قال: فَسَاقَ الناسَ وهم يومئذ كتائب عليه، فكنتُ في ساقتها، حتى تولت تلك الكتائب بأسرها، لم يبقَ مَن يغالبه»(٦٠).

والساقة، جمع سائق، كالقادة جمع قائد، ويصوّر لنا الإمام (عليه السلام) مكانه في ساحة الحرب، وكيف كان يطرد الكافرين من ساحة القتال، حتى يكونَ في آخرهم، «لأنّ السائق إنّما يكون في آخر الركب والجيش»(٦١).

واختلف شرّاح النهج في إرجاع هذا الضمير، فاحتمل الراوندي أمرين فيه: أنْ يرجعَ إلى الحرب، أو إلى الدعوة المحمدية المباركة، قال: «أما والله إن كنت لفي ساقتها...» أي: إنَّ الأمرَ والشأنَ كنتُ لفي ساقة الحرب، وهي جمع سائق أي: كنتُ في تدبير إهلاكِ أهلِ الحربِ الذين يقيمون الحرب من الأعداء، وساقة الحرب جمع سائق، يجوز أن يكونَ ضميرُ النبوة والبعثة التي يدُلُّ عليها قولُه: إن الله بعث محمداً (صلى الله عليه وآله)، أو ضمير الدعوة النبوية، وإن لم يجرِ لها ذكرٌ»(٦٢).

على حين أرجعه محمد جواد مغنية إلى الناس في زمن النبي (صلى الله عليه وآله)، فهو (عليه السلام) قد ساقهم حتى بلغوا منازل العزة والكرامة، قال: «الضميرُ في ساقَتِها، وتولَّت بِحَذافِيرِها يعودُ إلى

الناسِ الذين ساقَهُمُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وآله)، حتى بلغَ بهم منازلَ العِزَّةِ و الكرامة، ويريد الإمامُ أنَّه قد ساهم في ذلك»[٦٣].

أما الخوئي فتابع البحراني في أنَّ الضميرَ راجعٌ إلى كتائبِ الحَرْب[٦٤]، لأنَّه (عليه السلام) إنَّما خطب هذه الخطبة وهو في طريقه إلى حرب أهل الجمل، فأراد أنْ يُذَكِّرَ النَّاس أنَّه قاتل المشركين في أول الدعوة الإسلامية، حتى أسلموا، وكيف أنَّه هزمهم وساق كتائبهم إلى الهزيمة، فهو المناسب لكلامه (عليه السلام) لمناسبة الخطبة.

أما ما ذهب إليه الراوندي من عود هذا الضمير على الدعوة النبوية فبعيد، إذ لم تكن البعثة لتوصف بوصف الساقة، فهذا التعبير إنما يعبَّر به عن الحرب، أو الركب، ثم إنَّه لم يوضِّحْ ما معنى قول الإمام: «حتى ولّت بحذافيرها» هل المقصود منه أنّ الضمير يعودُ على الدعوة النبوية وأنَّها قد انتهت بأجمعها؟.

أما قول محمد جواد مغنية بأنه يرجع إلى الناس فبعيدٌ أيضاً، لأنه لو كان هكذا لقال: لفي ساقتهم، بضمير الجمع المذكر، كما في قوله (عليه السلام) في الخطبة نفسها قبل محلّ الشاهد: «**فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ واطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ**».

الخاتمة

نستنتج من كل ما سبق أن الإمام (عليه السلام) كان كثيراً ما يعتمد على ذكر الشيء ونقيضه فلم يكتفِ بذكر أحد أطراف الثنائية من دون ذكر النقيض وذلك لأن التناقض والتقابل هما ديمومة الحياة وسبب معرفة الأشياء، وقد جاء في الحكمة قولهم: «وبضدها تعرف الأشياء» فالإمام (عليه السلام) كان خبيراً بالواقع وعلاقات الناس فيما بينهم فالبنية الضدية في الثنائيات تشحن الخطاب في نهج

البلاغة بالحركة التي تستوعب مفارقات الحياة وكل ما فيها من حركة الجدل التي تعتمل في الواقع.

ويظهر عبر البحث أيضاً أن الأدب الديني أو الأدب الإسلامي هو أدب رصين يقوم على نظرية محكمة لها سماتها الفنية وخصائصها الأسلوبية يقوم على الانفتاح والتقبل في موقف يميل إلى الوسطية والاتساع، وبهذا يتأكد الموقف الوسطي للنظرية الإسلامية بصدد الثابت والمتحول، في تيار الابداع الأدبي إذ يقوم على رفض السكون التام من جهة والحركة العمياء من جهة أخرى، احتراماً لعناصر الديمومة والثبات من جهة وانفتاح على قوى التجديد والتغيير والتحول من جهة أخرى. فهو يتسم بقبول الجديد المتغير ما دام أنه لا يرتطم ورؤيته للكون والعالم والأشياء، ولكنه لن يضحّي -خلال تقبله ذاك- بأي من العناصر الثابتة التي تمثل عموده الفقري -إذا صح التعبير- وإلّا غدا العمل الأدبي رخواً متميعاً رجراجاً لا يشده رابط ولا تمسك به شخصية مستقلة متبلورة.

إن هنالك حدوداً للتغير والتجديد يتوجب أن يقف عندها الأديب الجاد، وإلّا سقنا معطياتنا الأدبية إلى الضياع الذي لا نصل في صحاريه المترامية إلى قطرة واحدة من ماء.

يتضح من البحث أن من معاني الحق كثيرا: فالحق هو الباقي والثابت. وكذلك الله هو الحق والحق من أسمائه. والآخرة من معاني الحق لأنها هي الثابتة والدنيا إلى زوال. وكذلك الهدى والمعرفة والعقل والجنة وقد يشتبه بعض الناس في تمييز الحق من الباطل والسبب في ذلك الشبهات والفتن التي قد تطرأ على ذهن الإنسان ولم يهتد لها إلى حل بحدود علمه، ومن الأسباب أيضا أن يفسر الإنسان الدين بآرائه من

دون أن يستند إلى الدليل والحجة وإنما بدافع الهوى وحب النفس.

يظهر البحث سمة أسلوبية لها مؤثرات جمالية وإقناعية تظهر في كلام الإمام علي (عليه السلام) وهي سمة الثنائية التي قام البحث بتناولها وقد طبقت على ثنائية الحق والباطل بدلالتهما المعجمية اللفظية وقد تكررت هذه الثنائية كثيرا في كلام الإمام (عليه السلام) وأفادت النصوص بفوائد وخصائص أسلوبية أوضحها البحث.

أظهر البحث بعض الثنائيات التي تدل على معنى الحق والباطل وهذه الدلالة كانت غير مباشرة وقد ظهرت في ثنائيات متعددة وقف البحث على بعض منها.

وأظهر البحث أيضا قيمة مصطلح الثنائية ودوره الإقناعي والتأثيري الفعال في المتلقي وكذلك الدور الصوري الذي يهز النفس ويثير الفكر.

وقد يجد القاري نتائجا أخرى عند قراءته لهذا البحث؛ ندعو الله أن نفيد به ومنه ويجعله خالصا لوجهه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

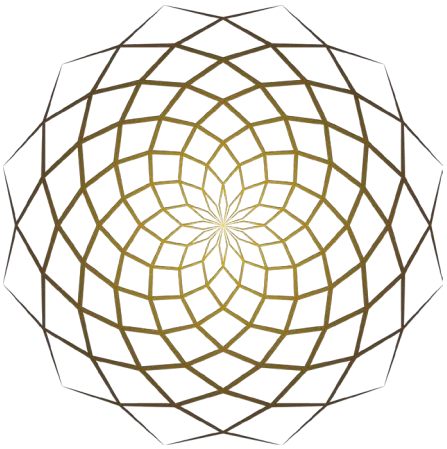

الهوامش

(١) ينظر: صوت الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة: ٢/ ٦٩.

(٢) مروج الذهب، المسعودي: ٢/ ٤٣١.

(٣) الطراز، حمزة بن يحي العلوي: ٧٩.

(٤) ينظر: جدلية الخفاء والتجلي دراسة بنيوية في شعر كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط: ١، ١٩٧٩: ١٠.

(٥) الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي. د. شلتاغ عبود: ١٧٢.

(٦) سورة الروم: آية ٣٠.

(٧) ينظر: مدخل إلى نظرية الادب الإسلامي. د. نجيب الكلابي: ١٤٧.

(٨) نظرات في الادب. ابو الحسن علي الحسني الندوي: ٣٣.

(٩) سورة النحل: آية ٥١.

(١٠) سورة النجم: آية ٢٠.

(١١) سورة الحاقة: آية ١٣.

(١٢) لسان العرب: مادة (ثنى).

(١٣) المصدر نفسه: مادة (ثنى).

(١٤) المصباح المنير: مادة (ثنى).

(١٥) سورة الحجر: آية ٨٧.

(١٦) لسان العرب: مادة (ثنى).

(١٧) سورة البقرة: الآيتان ٣٥- ٣٦.

(١٨) المعجم الفلسفي، جميل صليبا: ٣٧٩.

(١٩) المصدر نفسه: ٣٧٩.

(٢٠) المصدر نفسه: ٢٨٥.

(٢١) ينظر: البديع. ابن المعتز، طبعة كراتشكوفسكي، لندن: ١٩٣٥م: ٢٦.

(٢٢) ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب. ابن حجة الحموي، طبعة القاهرة- مصر، ١٣٠٤هـ: ٦٥.

(٢٣) ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع. ابن معصوم المدني، تحقيق: د. شاكر هادي شكر، طبعة النجف- العراق، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م: ١/ ٢٩٨.

(٢٤) المنطق، محمد رضا المظفر، مؤسسة انتشارات، دار العلم، قم: ٤٨.

(٢٥) بنية القصيدة في شعر عز الدين المناصرة. فيصل صالح القصدي، دار مجدلاوي- عمان، الأردن، ٢٠٠٥: ١٤٦.

(٢٦) ينظر: تذوق النص الأدبي وجماليات الأداء الفني، رجاء عيد، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة- قطر، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م :١٦٧.

(٢٧) نفحات الولاية -شرح عصري لنهج البلاغة. ناصر مكارم الشيرازي، ط٢، ١٤٢٦هـ:٢/ ١٢٦.

(٢٨) ينظر: المصدر نفسه.

(٢٩) نفحات الولاية -شرح عصري لنهج البلاغة. ناصر مكارم الشيرازي، ط٢، ١٤٢٦هـ:٢/ ١٢٦.

(٣٠) المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي. محمد مفتاح. المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩: ٧٠.

(٣١) سورة ص: آية ٢٦.

(٣٢) سورة الرعد: آية ١٧.

(٣٣) نفحات الولاية -شرح عصري لنهج البلاغة. ناصر مكارم الشيرازي، ط٢، ١٤٢٦هـ: ١/ ٢٨٣.

(٣٤) نهج البلاغة: ٢٤٩.

(٣٥) المصدر نفسه: ٢٤٩.

(٣٦) المصدر نفسه: ٢٣٨.

(٣٧) المصدر نفسه: ٣٠٣.

(٣٨) المصدر نفسه: ٤٠٢.

(٣٩) المصدر نفسه: ٤٠٢.

(٤٠) المصدر نفسه: ٢٣٧.

(٤١) المصدر نفسة: ١/ ٧٩.

(٤٢) المصدر نفسه: ١/ ١٥٩.

(٤٣) سورة طه: ٦٧.

(٤٤) ينظر: شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد: ١/ ٢١١.

(٤٥) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، الخوئي: ١/ ١٣٢.

(٤٦) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٦٢.

(٤٧) المصدر نفسه: ٨/ ٣٧٢.

(٤٨) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٧٠.

(٤٩) ينظر: شرح نهج البلاغة: ١/ ١٧٠- ١٧١.

(٥٠) المصدر نفسه: ٢/ ٣٢١.

(٥١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٢٢.

(٥٢) المصدر نفسه: ٢/ ٦٧.

(٥٣) المصدر نفسه: ٢/ ٦٧.

(٥٤) شرح نهج البلاغة: ٣/ ١٦٦.

(٥٥) سورة النساء: ٦٠.

(٥٦) سورة النمل: ٢٤.

(٥٧) ينظر: شرح نهج البلاغة: ٣/ ١٦٦- ١٦٧.

(٥٨) نهج البلاغة: ٧/ ٧٩.

(٥٩) نهج البلاغة (الخطبة ٣٣): ٧٠- ٧١.

(٦٠) شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٠٤.

(٦١) شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار: ١/ ١٤٦.

(٦٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة. قطب الدين الراوندي: ١/ ٢٣٨.

(٦٣) في ظلال نهج البلاغة. محمد جواد مغنية: ٢/ ٢٢٢.

(٦٤) ينظر: منهاج البراعة: ١٠/ ٣٦.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

• أنوار الربيع في أنواع البديع. ابن معصوم المدني، تحقيق: د. شاكر هادي شكر، طبعة النجف- العراق، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م.

• البديع. ابن المعتز، طبعة كراتشكوفسكي، لندن، ١٩٣٥م.

• بنية القصيدة في شعر عز الدين المناصرة. فيصل صالح القصدي، دار مجدلاوي، عمان- الأردن، ٢٠٠٥م.

• تذوق النص الأدبي وجماليات الأداء الفني، رجاء عيد، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة- قطر، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

• جدلية الخفاء والتجلي- دراسة بنيوية في شعر كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط: ١، ١٩٧٩م.

• خزانة الأدب وغاية الأرب. ابن حجة الحموي، طبعة القاهرة- مصر، ١٣٠٤هـ.

• شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار للعلامة المجلسي، علي أنصاريان ومرتضى حاج عليّ، طهران، ١٤٥٨هـ.

• شرح نهج البلاغة. الجامع لخطب وحكم ورسائل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام). تأليف عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ)، قدم له الشيخ حسين الأعلمي، موسوعة الأعلمي- بيروت، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٤م.

• صوت الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة، السيد حسن علي القبانجي النجفي، مؤسسة إحياء التراث الشيعي.

• الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. يحيى بن حمزة العلوي، القاهرة، ١٩١٤م.

• في ظلال نهج البلاغة- محاولة لفهم جديد: محمد جواد مغنية، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨م.

• لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت: ٧١١ هـ)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٥م.

• مدخل إلى الأدب الإسلامي، د. نجيب الكيلاني، دار ابن حزم للطباعة- بيروت ١٩٩٢م.

• مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

• المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف العلامة أحمد بن محمد بن علي المصري الفيومي(ت: ٧٧٠ هـ)، المطبعة الأميرية، القاهرة،

د. ت.
• المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.
• المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي. محمد مفتاح. المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
• الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي، د. شلتاغ عبود، دار المعرفة.
• المنطق، محمد رضا المظفر، مؤسسة انتشارات، دار العلم، قم، (د. ت).
• منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة. قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي (ت: ٥٧٣ هـ)، تحقيق: عبد اللطيف الكوهكمري، عنيت بطبعة مكتبة المرعشي، قم- إيران، ١٤٠٦هـ.
• نظرات في الأدب، أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار البشير، عمان- الأردن، ١٩٩٠م.
• نفحات الولاية- شرح عصري لنهج البلاغة. ناصر مكارم الشيرازي، ط ٢، ١٤٢٦هـ.
• نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، مؤسسة أنصاريان- إيران- قم ٢٠٠٤م.